

الابنُ والحفيد

وَوُورِثَ فَرَعَ المجد من آل هاشم
وجساء كريماء من كرام أمائل !!

obeikandi.com

جلس الفتى مبهور الأنفاس ، مشدود المشاعر ، وسط القوم الذين أحاطوا بوالده ، وهو يُحتَضَر . .
كان احتضار أبيه يَشْغَلُهُ ويَحْزَنُهُ .

لكنه مع ذلك ، وربما فوق ذلك ، كان يشغله ويستغرق وعيه وفطنته ، ولعه الشديد بأن يرى : كيف يلتقى الاثنان وجهاً لوجه ، البطولة والموت . . ! !

ألا إنها لفرصة فريدة للفتى المشغوف بالمعرفة ، فإن مُمثل البطولة في زمانه يتهاى الآن للرحيل ، ويقترُب الموت منه في حفاوة صديق !
فلينظر الفتى - ما شاء - كيف يواجه الأبطال الموت .

* * *

وتملأ الشيخ المحتضر في فراشه ، وأشار إلى الذين حوله لينضموه قليلاً . . حتى إذا أقاموا ظهره ورفعوا رأسه ، عانَقَتْهُمْ من عينيه نظرات حانية ، امتدت واتسعت حتى وجدوا بَرْدَهَا في صدورهم . .

ثم راح يوجه إليهم كلمات ، أراد أن تكون آخر عهده بهم ،
وبالدنيا !!

[يا معشر قريش ..

أوصيكم بتعظيم هذا البيت - الكعبة -

فإن فيه مَرَضَةَ الرب ، وقوام العيش ..

[صَلُّوا أَرْحَامَكُمْ ، ولا تقطعوها ،

فإن صلة الرحم مَنَسَّةٌ في الأجل ..

[اتركوا البغى ، فقد أَهْلَكَ القرون

من قبلكم ..

[يا معشر قريش ..

أجيبوا الداعى ، وأعطوا السائل ،

فإن فيهما شرف الحياة وشرف

المات ..

[وعليكم بصدق الحديث . وأداء

الأمانة ..

[ألا وإني أوصيكم بمحمد خيراً ،

فإنه الأمين في قريش ، والصادق

في العرب ، وهو الجامع لكل

ما أوصيكم به ..

[ولقد جاءنا بأمر قَبْلَهُ الجنان ،

وأنكره اللسان : مخافة الشَّان ..

[وَأَيُّمُ اللَّهُ لَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى صَعَالِكَ
العرب ، وأهل الأطراف ، والمستضعفين
من الناس ، قد أجابوا دعوته ،
وصدَّقوا كلمته ، وعظَّموا أمره ،
فخاض بهم غمرات الموت . .
[وَلَكَأَنِّي بِهِ وَقَدْ مَحَضَّتْهُ الْعَرَبُ
وَدَادَهَا ، وَأَعْطَتْهُ قِيَادَهَا . .
[وَاللَّهُ ، لَا يَسْلُكُ أَحَدَ سَبِيلِهِ إِلَّا
رَشْدًا ، وَلَا يَهْتَدِي بِهِدْيِهِ إِلَّا سَعْدٌ .
[وَلَوْ كَانَ فِي الْعَمْرِ بَقِيَّةٌ ، لَكَفَفْتُ
عَنْهُ الْمَزَاهِرَ ، وَلَدَفَعْتُ عَنْهُ الدَّوَاهِيَ] .

* * *

ثم وضع عينيه على أهله الأقربين من بني هاشم ، واختصَّهم بوصية
أخرى .

[. . وَأَنْتُمْ يَا مَعْشَرَ بَنِي هَاشِمٍ
أَجِيبُوا مُحَمَّدًا ، وَصَدِّقُوهُ ، تَفْلَحُوا
وترشدوا] !!

وأوماً إليهم ، ليعيدوه إلى ضججته الأولى ، واستوى تحت غطاءه . .
وعبرت لحظات ، تغشَّتْ بعدها سَكِينَةُ الْمَوْتِ !!

* * *

لقد أدَّى الراحل المسجِّي ، آخر الأمانات لديه . . أمانة كان

يُحَاذِرُ أَنْ تُعْجزه رهبة الموت عن أدائها !!

ومال رأسه المثقلُ بالخوف ، على صدره المثقل بالإشفاق ..

ولكن .. الخوف مِمَّنْ .. ؟

والإشفاق على مَنْ .. ؟

الخوف من قريش .. والإشفاق على ابن أخيه الذى حشدت قريشُ له كل كيدها وبأسها ، لأنه يهتف فيهم : « أَنْ لا إله إلا الله » .. !!

أعرفتمُ الآنَ عَمَّنْ نتحدث .. ؟

أجل - إنه هو .. أبو طالب ، شيخ قريش ، وسيد جيله ..

وأما الفتى الذى كان يجلس مبهور الأنفاس ، مشدود المشاعر ،

فهو ابنه وفتاه : على بن أبى طالب !!

انظروا ..

ها هو ذا ، يُقْبَلُ جبين أبيه ، ثم يسجّيه ، ثم ينهض فى ثبات ليدبر أمره ..

إن غبطةً ظاهرة تُزَاجِمُ فى نفسه كل مشاعر الحزن والفجعة إذ رأى أباه يموت - حين يموت - لا صامتاً ، ولا مخذولاً .. بل خطيباً ، يلخص فى كلمات سواطع كل فضائل حياته التى عاشها فوق الأرض وبين الناس ، ويواصل فى إلحاح نبيل وقفته إلى جانب تلك الفضائل ، وإلى جانب المُمَثِّلِ الجديد والمجيد لها .. الداعى إلى الله بإذنه .. « محمد بن عبد الله » !!

أجل .. فبقدر ما أحزن الابن فقد والده ، كانت غبطته إذ تلقى

في لحظة الختام هذه ، أصدق عظات الحياة وأروعها :

عَظَّمُوا الكعبة ..

صَلُّوا الرَّجِم ..

اتركوا البغى ..

أجيبوا الداعى ..

كونوا صادقين ..

عيشوا أمناء ..

وأولاً ، وأخيراً :

انصروا محمداً ..

فإنه الهادى إلى سواء السبيل . . ! !

~ * ~

من صُلِّب هذا الوالد جاء « على » ..

ولقد كانت قريش كلها تنظر إلى « أبى طالب » نظرتها إلى زعيم .

الكل يحبه ، ويهابه ، ويحترمه ، لا لمكانته في قريش فحسب ..

بل قبل هذا وذاك ، لما يحمله من نفس كريمة ، وخصال عظيمة ،

وشخصية عادلة فاضلة ، تبهّر الناس بقوتها واستقامتها ، وشموخها .. !

وإنه ليكفيننا في التعرف إلى شخصية هذا البطل لمسات من مواقفه

تجاه الإسلام ، وقريش ..

لقد وقع على كاهله دون أعمام النبي جميعاً ، ودون أهله وعشيرته

كلهم ، عبء مناصرة الرسول ، ومقاومة قريش ..

وثبت الرجل ثباتاً باهراً أمام مناورات ومؤامرات تهد الجبال ! !

ذلك أنه كان أوسع رجال قريش أفقاً ، وأذكاهم قلباً ، وأوفرهم
جسارة وعزماً .

* * *

في الأيام الأولى لدعوة النبي ، رأى أبو طالب ولده - علياً - يصلي
خفية وراء الرسول .

وكانت هذه أول مرة يعلم أن ابنه الصغير السن ، قد اتبع محمداً .
وما اضطرب الطفل حين رأى أباه يبصره مُصلياً .
ولما أتمَّ صلاته ذهب تلقاء والده وقال له في صراحة وثبات ليسا
بطارين عليه !!

[يا أبت ..]

[لقد آمنتُ بالله ، وبرسوله ،

وصدقتُ ما جاء به ، واتبعتُهُ] .

فأجابه أبو طالب :

[أما إنَّه لا يدعوك إلا إلى خير ،

فالزمه] .

ليس ذلك فحسب . . .

بل إنه رأى النبي يوماً يصلي ، وقد وقف « عليٌّ » إلى يمينه .

ولمح من بعيد ولده « جعفرًا » فناداه ، حتى إذا اقترب منه قال له :

[صِلْ جناحَ ابن عمِّك]

[وَصِلْ عن يساره] !!!

سَعَةً أفق ، وذكاء قلب يحملان صاحبهما على إفساح الطريق

للحقيقة الجديدة حتى تأخذ فرصتها وتثبت صدقها وأحقيتها .
 ولو أن إنساناً آخر غير « محمد » عليه السلام هو الذى جاء بهذه
 الدعوة ، ما تخلف أبو طالب عن نصرته .
 فهو - كما نراه فى أخباره وسيرته - من أولئك الأذكياء المنصفين
 الذين لا يتورطون فى حماقة تجميد الزمن والحجر على المستقبل .
 وهو - كما رأينا فى وصيته عند موته - من المؤمنين بقوة الفضيلة
 والخير ولقد عاش حياته يناصر كل دعوة وكل داعية فى هذا السبيل .

* * *

وأبو طالب بعد هذا ، أعلم الناس برسول الله . .
 فهو عمه ، وكافله ، ومُربيه . .
 إنه يعرفه إنساناً كاملاً . .
 صادقاً ، لم يُعهد عليه كذب قط . .
 أميناً ، لم تشب أمانته شائبة . .
 طاهراً ، لم تعلق به شبهة . .
 ولطالما رآه يتفجر شوقاً إلى رؤية الحقيقة . .
 ولطالما رآه يضطرم همّاً وأسى على أهله وقومه الذين ألغوا عقولهم
 ووجودهم أمام حجارة مركومة زعموها آلهة وأرباباً . . ! !
 فهل يتخلى عنه . . ؟ هو الذى لم يكن سيتخلى عن أى غريب
 آخر جاء يحمل رايته ، ، ويعلن دعوته ؟ !
 لقد كان « أبو طالب » عظيمًا بشخصيته ، وبمواهبه ، وبسجاياه . .
 ولقد وقف إلى جانب الرسول ، والإسلام الناشئ - الموقف الذى

تمليه عليه رُجولته وعظمة نفسه .

* * *

لقد صمد لقريش ، وأحبط كل مكايدها ، حتى لم تجد آخر الأمر بداً من أن تلجأ إلى عمل تأباه تقاليد العرب وأخلاقهم .

وذلك حين يثست من ثنى الرسول عن دعوته ، ومن ثنى أبى طالب عن مناصرته ، فقرر زعماءها مقاطعة بنى هاشم وبنى المطلب .

وفعلاً ، انحاز بنو هاشم وبنو المطلب إلى أبى طالب ، وأقاموا معه فى شعبهم . . . ولبثوا داخل هذا الحصار الرهيب قرابة أعوام ثلاثة ، حتى أكلوا ورق الشجر اليابس ليدروا به غوائل الجوع .

وأبو طالب كالطود شموخاً ورُسوخاً ، يرفض كل مساومة تحاولها قريش ، ويُسلط عليهم موهبته الشعرية فينفخهم بالقصيد تلو القصيد .

أَفِيقُوا أَفِيقُوا قَبْلَ أَنْ يُحْفَرَ الثَّرَى

وَيَصْبِحَ مَنْ لَمْ يَجْنِ ذَنْباً كَذَى الذَّنْبِ

وَلَا تَتَّبِعُوا أَمْرَ الْوُشَاةِ وَتَقْطَعُوا

أَوَاصِرَنَا بَعْدَ الْمَوْدَةِ وَالْقُرْبِ

فَلَسْنَا وَرَبُّ الْيَتِّ نُسَلِّمُ أَحْمَدًا

لِضُرَاءَ مَنْ عَضَّ الزَّمَانَ وَلَا كَرُبَ

وَلَسَا تَبِينُ مِنَّا وَمِنْكُمْ سَوَالِفُ

وَأَيْدٍ أَثَرَتْ بِالْقُسَاسِيَّةِ الشُّهْبِ

* * *

إن أبا طالب إذا آمن بشيء ، كان إيمانه قوياً صلباً . . نفس

الصلابة والقوة اللتين ورثهما عنه ولده « على » بلى وبنوه أجمعون . .
ولقد آمن « أبو طالب » بحق الرسول في أن يقول كلمته ، وبلغ
دعوته . . فإن كانت حقاً ، فمن حق الحق أن ينتصر ويسود . .
وإن كانت باطلا ، فإن الباطل سيذهب جُفاء . .
من أجل هذا قاوم قريشاً عندما رآها تفرض الصمت على الرسول .
أجل . . إنه لا يقف مع « محمد » ابن أخيه . .
وإنما يقف مع « محمد » الداعي إلى الحق ، وإلى الخير . .
« محمد » الصادق والأمين . .
ولو شك « أبو طالب » في صدق ابن أخيه ما ناصره ولا ظاهره .
فهو إنما يُناصر فيه الحق ، لا القرابة . . ! !
وليس أدلّ على ذلك من موقفه يوم أنبأه الرسول عليه الصلاة والسلام
بأن الله قد سلط الأرضَ على الصحيفة التي كانت قريش قد سطرت
فيها عهداً بمقاطعة بنى هاشم وبنى المطلب ، وعلّقها في جوف الكعبة .
أنبأه الرسول أن الله قد سلط عليها الأرضَ ، فأكلتها ولم تبق منها
إلا اسم الله . .

هنالك ذهب أبو طالب إلى قريش في ناديم وقال لهم :

[يا معشر قريش . .

[إن ابن أخي أخبرني بكذا ، وكذا فهلّم

صحيفتكم ، فإن تك كما قال محمد

فانتخوا عن قطيعتنا ، وانزلوا عما فيها . .

وإن يك كاذباً . . دفعته إليكم] . . .

ورضى زعماء قريش بهذا . .

وقاموا إلى الكعبة ، وجاءوا بالصحيفة من مكانها فإذا الأمر كما قال رسول الله عليه الصلاة والسلام .

وسُقِطَ في أيديهم ، وخرج الناس من عهد المقاطعة ، وباءت المؤامرة بالهزيمة والفشل . .

إن أبا طالب هنا يحتكم إلى حق الصدق في أن يُحمى . . لا إلى حق القرابة في أن تُشايح . . ! !

فهو يقول لقريش : إذا تبين صدق محمد في هذه الواقعة التي يمكن الثبوت منها في يُسر ، فله عليكم الحُجَّة . .

وإذا تبين كذبه ، فأنا لا أحمي الكاذبين . .

وحاشا رسولَ الله ألا يكون صادقاً . . ! !

ومن قبل هذا ، عندما ذهب وفد قريش إلى أبي طالب قائلين له :

[إن لك فينا سناً ، وشرفاً ، ومنزلة . .

] وإنا قد استهيناك من ابن أخيك فلم

تَهْ عُنَّا . .

[وإنا لا نصبر على هذا ، من شَمَّ

آبائنا . وعيب آهتنا ، وتسفيه أحلامنا . .

] فإما أن تكفَّه عُنَّا ، أو ننازله وإياك

حتى يهلك منا أحد الفريقين] .

حين قالوا له ذلك . .

وحين جاءه رد الرسول :

[لو وضعوا الشمس في يميني ، والقمر
في يساري ، ما تركت هذا الأمر حتى
يقضيه الله ، أو أهلك دونه] .

ازداد الطود شموخاً ، والعزم مضاً ، وراح البطل - أبو طالب -
يلفح قريشاً بصلابته وإصراره ، ويقول :

ولقد علمتُ بأن دين محمد من خير أديان البرية ديننا
والله ، لن يصلوا إليك بجمعهم : حتى أُوسدَ في التراب دفينا
مرة أخرى - هذا هو الرجل الذي من صُلبه جاء « علي » !! !

* * *

كان يجلس ذات يوم في سقيفة له ، عندما أقبل عليه الرسول
حزيناً آسفاً . . .

وتحرّاه الأمر . فعلم منه أن قريشاً أغرت به سفيهاً من سفهائها فالتقى
عليه روثاً ودماً وهو ساجد في الكعبة يناجي ربه ، وخالفه . . . !! !

فنهض من فوره ، حاملاً سيفه يمينه ، متأبطاً ذراع النبي بيساره
حتى إذا وقف على المتأمرين ، وآهم يتململون حين بصروا به مقبلاً ،
صاح فيهم :

[والذي يُؤمن به محمد ، لئن قام
منكم أحد ، لأعاجلنّه بسيفي] . . .

وراح يمسح الروث والدم بيده عن رسول الله ثم يقذف بهم على
وجوههم جميعاً . . وجوه أشراف قريش الذين تحولوا أمام البطل
إلى جُرذان . . !! !

ولقد أدركت قريش آخر الأمر ، أنها لن تنال من الرسول مثلاً
وأبو طالب إلى جواره ، يذود عنه ويحميه . .

* * *

لقد أحب أبو طالب في ابن أخيه كل الفضائل التي كان يعشقها
ويقدها ، والتي رأى الرسول يرفع لواءها في ولاء منقطع النظير . .
ولقد عبر عن حبه ذاك بإرادته الصلبة في تلك المواقف التي رأينا
طرفاً منها . . كما عبر عنها بموهبته الفنية في شعره البليغ :

لقد علموا أن ابنتنا لا مكذبٌ لدينا ، ولا يُعنى بقول الأباطل
حليمٌ ، رشيد ، عادل غير طائش يُوالى إلهاً ، ليس عنه بغافل
وأبيض ، يُستقى الغمام بوجهه ثمالُ اليتامى ، عصمةٌ للأرامل

* * *

ومات أبو طالب . .

ومات ، وملئ قواده ميلٌ عارم إلى الدين الجديد ، وحنانٌ مُفيض ،
على رسوله المجيد .

واشتد أذى قريش للرسول . .

وذات يوم وقد اشتدت عليه وطأة المشركين وأذاهم ، وجهه لعمه
تحية يستحقها حين قال :

[ما نالت مني قريش شيئاً أكرهه .

حتى مات أبو طالب] !!

ثم هز رأسه العظيم في أسى وقال :

[يا عمّ ..]

ما أسرع ما وجدتُ فقدك [!!]

* * *

هل كان « عليّ » ابن هذا البطل فحسب .. ؟

لا .. بل كان حفيدَ بطل آخر ، عظيم أيّ عظيم ! !

ذلكم هو : عبد المطلب ..

وبوقفة سريعة نفقُها مع فضائل عبد المطلب ، وسجاياء العظيمة ،
يتبين لنا أن « علياً » لم يرث عن أبيه فضائل طارئة .. بل ورث فضائل
أصلية وعريقة ، سارت مسير النور عبر أصلاب نقيّة شامخة ..

فمن يكون ذلك السيد الماجد - عبد المطلب .. ؟

إنه الرجل الذي بلغ في قریش وفي العرب جميعاً منزلة لم يكدر
يبلغها أحد .

وعندما يزدحم الحجاج حول زمزم في مواسم الحج كل عام ،
فإن عليهم أن يذكروا بالخير والإجلال ، الرجل الذي حفرها وتفجّرت
على يديه البرّتين مياها .

ومن عساه يكون ، غير عبد المطلب .. ؟

لقد استقبلت روحه الصافية ذات ليلة وهو نائم ، هاتفاً هتف به
في رؤيا حق يقول له :

- احفر طيّبة .

واستيقظ من نومه ، لا يدري ما تعبير رؤياه .

بيد أن الهاتف زاره في الليلة التالية ، وقال له :

- احفر بَرَّة .

واستيقظ كذلك دون أن يدري ماذا يُراد منه ، وماذا يراد له . .

وفي الليلة الثالثة نودى مرة أخرى في منامه :

- احفر زَمْزَم . .

- قال : وما زمزم . . ؟ ؟

أجابه الهاتف :

- لا تتزفُ أبداً ، ولا تُدَم .

تسقى الحجاجَ الأعظم ! !

وَدُلَّ على مكانها . .

ولم يكد يطلع النهار حتى اصطحب ابنه « الحارث » وذهبا حيث

راحا يغوصان في الأرض بمعاولهما ، فتفجرت مياه النبع المبارك الخالد

الذي كانت الأقدار الرحيمة قد منحته إسماعيل وأمه وسط الصحراء

اللاهية في الدهر البعيد ، ثم طمرته الصخور والرمال !

إن عبد المطلب ، أو « شيبة » كما كان اسمه الحقيقي ، لرجل

فَذَّ ، من طراز باهر ، بقدر ما هو نادر . .

وهل يكون الجدُّ الأول لرسول الله . . ثم الجدُّ الأول لعلي بن أبي طالب

إلا رجلاً تصنعه الأقدار على عينها . . ؟

لقد كان ذِكْرُهُ يملأ صحراء العرب من شمالها إلى جنوبها شذًى

وعبيراً . .

ومن كثرة محامده دعاه الناس . . « شيبة الحمد » . .

وكان يصفونه بأن : (الرجل الذي يطعم الناس في السهل ،

والوحوش في الجبال) !!

وكان غزير الحكمة ، عميق الإيمان .

عندما غزا « أبرهة » مكة ليهدم الكعبة . وجاء في جيش لب لا طاقة لقريش بمقاومته ، فرعت قريش إلى شيخها وزعيمها - عبد المطلب - تسأله الرأي . .

فأمرهم عبد المطلب - وقد أدرك عجز قومه عن مجابهة الجيش الزاحف - أن يحملوا نساءهم ، وأطفالهم ، ومتاعهم ، ويغادروا مكة إلى شغاف الجبال ، تاركين البلد الحرام « مدينة مفتوحة » يتولى رب البيت حراستها . .

أما إذا حاول الجيش المقتحم أن يتسوّر الجبال وراءهم ليعتدى على أعراضهم ، فليسقطوا جميعاً صرعى قبل أن تمس أعراضهم بسوء . . ونفس الموقف وقفه من أبرهة عندما طلب أن يتحدث إلى زعيم قريش ، فذهب إليه « عبد المطلب » .
وهناك ألقى على مسامعه كلمته المأثورة :

[أما الإبل - فهي لى . . وأما البيت -
فله رب يحميه] .

~ ~ ~

لم يأخذ « شينة الحمد » هذا الموقف إلا بدافع إيمانه الوثيق القوى بالله وبقدرته .

من أجل ذلك ، لا يكاد يرجع من لقائه لـ « أبرهة » حتى يتجه من فوره إلى البيت الحرام . .

وهناك يأخذ بحلقتي باب الكعبة ، ويمضى يناجى الله فى إيمان
الواقى بنصره .

[لا هُمَّ إِنْ الْمَرْءُ يَمْنَعُ رَحْلَهُ ،
فَامْنَعُ رِحَالِكَ] .

ولكن ، ماذا لو تركت الأقدار « أبرهة » يهدم البيت ، وأين يذهب
عندئذ إيمان عبد المطلب بالله . . ؟

هنا يبرز عمق إيمائه ، وأصالة حكمته ، وهو يستكمل مناجاة
الله قائلاً :

[إِنْ كُنْتُ تَارَكُهُمْ وَكَعْبَتَنَا ، فَأَمْرٌ
مَا بَدَا لَكَ] ؟ !

أجل . . فحتى إذا وقع ما يخشاه عبد المطلب ، وما يُحاذره من
أبرهة وجيشه ، وهدمهم بيت الله الحرام . .

حتى إن حدث ذلك ، فإن إيمان « عبد المطلب » بالله لن يَزِلَّ
ولن يخبو . .

وسيحادث ما يحدث إنفاذاً لحكمة يعلمها الله . . ! !

هذا إيمان رجل إلهى تموج الأرض من حوله بالوثنية - لا فى جزيرة
العرب وحدها . . بل فى بلاد الحضارة نفسها - فى « فارس » و « الروم »
فى حين يسيطر على وجدانه شعورٌ خفىٌّ بأن هناك إلهاً أسمى ، وأجلَّ ،
وأعظم . .

إن إيمان « عبد المطلب » يبدو نقيّاً ، تقياً فى مناجاته تلك التى
مرّت بنا الآن .

لقد كان يقبع حول الكعبة أكثر من ثلاثمائة صنم ، لم يدعها
« عبد المطلب » لتحمل الكعبة ..

لم يُنادِ « هُبَل » ولا « اللات » ولا « العزى » !
ولم يناد شيئاً من تلك الأوثان والأصنام التى لا يفصلها عن الكعبة
بعدُ أو مسافة ..

إيمانادى الله .. وضرع إلى الله . ولجأ إلى العلى الأعلى الذى كان
شعوره الكامن فى أعماقه يدلّه عليه .. ويشير به إليه .. فقال مناجياً له
وضارِعاً :

[لا هُم ، إن المرء يمنع رَحْله ،
فامنع رِحالكَ] !!

° ° °

ولقد وجد إيمان عبد المطلب مثوبته العاجلة ، فى الضربة الماحقة
التي وجهها القدر العظيم لأبرهة وجيشه .. إذ سلط الله عليهم أضعف
جنده .. طيراً أبابيل ، حملت إليهم المنايا ، وخلّفتهم صرعى وأحاديث !
كان عبد المطلب يُمنّ قومه وبركتهم ..

وكأنيّ من مرة حجبت السماء عنهم غيثها ، وكاد القحط يقتلهم
فيذهبون إلى شيخهم « عبد المطلب » الذى يخرج بهم صفوفاً ضارعة
خاشعة إلى قنن الجبال ، حيث يضرع إلى الله كي ينزل المطر ، مبتهلاً
بهذه الكلمات :

[اللهم هؤلاء عبيدك ، وأبناء
عبيدك ، وقد نزل بنا ما ترى ؛

فأذهب عنا الجذب ، وأتينا بالمطر

والخصب [.. !!]

فلا يلبثون إلا قليلاً .. ثم تجيء الأمطار كريمة رحيمة ، تُنبِت ،
وتحيي ، وتُنْعِش ..

* * *

الحق أنه إيمان عجيب .. إيمان هذا الرجل الفريد في عصر
كانت الوثنية دينه وصلاته .. !!]

إن عبد المطلب ، ليرى الله في كل نعمة يُؤثّاها . وفي كل خطوة
يخطوها ..

عندما بُشّر بمولد حفيده « محمد بن عبد الله » صلى الله عليه وعلى آله
وصحبه وسلم .. حمل الوليد فوق ذراعيه وصدره ، وذهب به مُسرِعاً إلى
الكعبة حيث صلى لله صلاة شكر وحمد .. وراح يقول :

الحمد لله الذي أعطاني - هذا الغلام الطيّب الأردان

قد ساد في المهد على الغلمان - أعيذه بالله ذى الأركان

حتى أراه بالغ البُنيان

ولقد دلّته شفافية رُوحه على ما سيكون لهذا الوليد من شأن عظيم ..
فأحبه حباً ما أحبّ مثله أحداً .. وراح يعامله في طفولته معاملة
صديق !!]

وفي كل مناسبة ، كان يأخذ يد ابنه « أبي طالب » ويضعها في يد
حفيده « محمد » عليه الصلاة والسلام ، ويقول لأبي طالب في إحساس
من يكاد يرى الغيب المقبل رأى العين .

[يا أبا طالب ...]

[سيكون لابني هذا شأن فاحفظه ،

ولا تدعْ مكروهاً يصل إليه] !!

ولقد حفظ أبو طالب العهد ، ورعى ابن أخيه ، ووصية أبيه ،
رعاية تليق برجولته ، وبأرومته ، وبعظمة سجاياه .

* * *

وحينما خلت الديار من الجدِّ ، ومن الأب ، كان « علي » الابن
والحفيد . . ابن أبي طالب ، وحفيد عبد المطلب يحمل منهما ميراث
السجايا الفاضلة ، والعظمة المفردة . .

كان يحمل منها نبالة الخلق . ونبالة الدم معاً . .

فبنو هاشم في ميزان المجتمع ، سادته ، وقادته وأشرافه . .

و « بنو هاشم » في ميزان القيم ، أجود الناس كفاً . . وأوفاهم ذمة . .

وأنداهم عطاء . . وأكثرهم في سبيل الخير بلاء . . وأحماهم للذمار . .
وأحفظهم للجار . .

وبكلمة واحدة : هم في قومهم وزمانهم ، ضمير أولئك القوم ،

وذلك الزمان . . !

* * *

ولعلنا الآن قادرون على أن نعرف ماذا أخذ الابن عن أبيه ، والحفيد

عن جدِّه . . ؟

ماذا تلقى « علي » من أبي طالب ، ومن عبد المطلب . . ؟

ماذا أخذ عنهما ، وماذا ورث ؟

لقد أخذ الفضائل كلها ، وورث المكرمات جميعها .

ورث عنهما « مضاء البذل » و « مضاء العزم » و « مضاء

العقيدة » !!

أجل .. هذه هي السمة المميزة لهذا الميراث الجليل .. المضاء الذى

يجعل فضائل هؤلاء القوم مهيئة دائماً للنجدة والعمل !!

كل قوى الخير فيهم مشحونة ماضية ، لاتعرف الوهن ، ولا

التردد ، ولا الاسترخاء .

وسوف نرى ذلك واضحاً أكثر ما يكون الوضوح في « على » الابن

والحفيد .. لاسيما بعد أن تدخل هذه الفضائل الموروثة في مختبرات

الدين القيم ، والإسلام الحنيف ، فتخرج خبثها النفيس ويزداد

ألقها الفريد ..

وثمة أمر آخر ، سنراه واضحاً في حياة « على » ، كما هو واضح

في خصال جده عبد المطلب .. ذلكم هو التفويض الذى يكاد

يكون مطلقاً ..

لقد رأينا عبد المطلب حينما نزل به ويقومه ما لا طاقة لهم به يُفوض

الأمر إلى الله في بساطة عجيبة ، بل قولوا في مثل براءة الأطفال !!

ذلك لأنه لم يكن تفويض العاجزين الواهين ، بل تفويض مؤمن

بأن الله هناك .. وراء كل حركة وكل عمل .. وأن ما تعجز قوى الخير

من البشر عن إنجازه ، يتولى هو أمره وحسابه ..

تفويضٌ حلو ، ورائع .. ورثه فتانا فيما ورث ..

ولسوف نرى « علياً » في مُقبل حياته وأيامه حين تنزل به الشدائد

الثقال ، يفوض الأمر إلى ربه في فنٍ عظيم . .
وسنرى وراء هذا التفويض حين نلقاه إيمان الأبرار ، لا استسلام العجزة .
وسنراه وهو يفوض الأمر إلى عالم الغيب والشهادة لا تشغله نتائج
الموقف وعواقبه .

ذلك أن ابن أبي طالب ، في حياته ، وفي صراعه لم يكن يعنيه
إحراز أى انتصار لشخصه ، أو غلبة لذاته . . إنما كان يعنيه ، ويأسرُ
لُبّه ، ويستغرق وعيه وجهده - فوز المبادئ التى آمن بها وحمل أمام الله
مُسؤوليتها . .

وعلى رأس هذه المبادئ كلها الإيمان بالله ، وحسن الاعتماد عليه .

* * *

لقد رأى ولاء أبيه لما كان يراه حقاً . .
وورث ولاء جَدّه عبد المطلب ، ومن قبل جده « هاشم » لما كانا
يريانه حقاً . .

لقد جاء من أصلاب قوم عُرفوا بأنهم حُماة العقيدة وحماة الفضائل ،
وسَدَنَة الخير . .

وعلى الرغم من أنهم لم يكونوا يعرفون حقيقة الإله الذى إليه يلجأون ،
وعليه يتوكلون ، فإن ولاءهم لقوته القاهرة وفضله الرحيم كان
على الدوام مشحوداً . . فكيف بولاء « على » وقد عرف حقيقة الله
واهتدى إليه . . ؟ !

ولكن : كيف عرف . . وكيف اهتدى . . ؟ ! تعالوا لنرى . .

* * *

أتبصرون هذه الدار البسيطة ، والخليلة . .

إن الفتى الذى نفقوا أثره ، هناك . .

إنه مع ابن عمه . . محمد بن عبد الله رسول رب العالمين . .

ذلك أن الرسول كان قد استأذن عمه أبا طالب منذ عهد بعيد ،

وقبل موته ببضع سنين كى يترك له علياً ، يعيش معه فى داره ودار خديجة

زوجه ، فأذن له . .

وإنه الآن فى تلك الدار التى يرسم الوحى داخل جدرانها خارطة عالم

جديد مقبل ، وبشرية جديدة وافدة . . !

يال له من فتى مُباركٍ ، محظوظ . .

إن وراثته المجيدة تزدهر الآن بين يدي أستاذ قدير . . هو ابن عمه ،

وواصله بربه ، وهاديه إلى صراط مستقيم .

فإلى هذه الدار المباركة ، لنصحب « علياً » فى رحلة حياته المجيدة . .

إليها ، تعالوا نمض خاشعين . .